النقد العربي الحديث

طبيعته ووجوهه ومكوناته

القسم الأخير

بقلم

أ.د. خليل الرحمن •

الحضور الصريح EXPLICIT PRESENCE

فأما الحضور الصريح للنص الأدبي في النص النقدي فغالبا ما يكون في النقد التطبيقي، فعندما يواجه ناقد ما نصا أدبيا معينا (قصة قصيرة أو قصيدة غنائية أو ملحمة، أو رواية أو مسرحية) يشرحه، ويحلله، ويفسره، ويوازن بينه وغيره من النصوص، ويصدر حكما بشأنه، ويوثق هذه الفعاليات ويدلل عليها بمقبوسات من هذا النص، يكون حضور الأدب في نصه النقدي حضورا صريحا.

والأمثلة على ذلك كثيرة لأن جل النصوص النقدية التطبيقية تتخللها شواهد من النصوص الأدبية المدروسة (الموثقة أو غير الموثقة).

ب – الحضور الضمني **IMPLICIT PRESENCE**

وأما الحضور الضمني فيكون في النقد النظري أو فيما يسمى عادة بأبحاث نظرية الأدب، وذلك عندما يتحدث الناقد عن أمور تتصل بطبيعة الأدب أو وظيفته أو

• – مدير مركز الشيخ زايد الإسلامي (جامعة كراتشي).

حدوده أو أعرافه، أو قواعده أو نواظم إنتاجه وما إلى ذلك، فعلى الرغم من أنه لا يشير على نحو صريح إلى هذا النص، أو ذاك من نصوص الأدب المعنى بدراسته إلا أنه يفكر ضمنا بنصوص أدبية محددة، وإن كان لا يذكرها صراحة أو يفصح عنها بإشارة موثقة.

والواقع أن قارئ النص النقدي يستطيع إذا ما أوتي ثقافة واسعة، أن يكتشف هذه النصوص من غير كبير عناء، فعلى سبيل المثال أن ارسطو عندما تحدث في كتابه عن فن الشعر **POETIES** عن المحاكاة وأدواتها وموضوعها، وعن المأساة والملهاة ونظرية التطهير، ووحدة العمل، وغير ذلك، إنما كان يصدر عن نصوص الأدب اليوناني التي أنتجها الشعب اليوناني حتى عصره، وعلى الرغم من أنه لم يكن يشير في كل فكرة إلى النص الأدبي الذي يتأمل فيه ضمنا، فإن دارس الأدب اليوناني يستطيع أن يوثق هذه الأفكار بإشارات واسعة إلى نصوص محددة من هذا الأدب.

ج- الحضور الفعلي الحقيقي **REAL PRESENCE**

ويكون هذا عندما يشير الناقد صراحة أو ضمنا إلى نص أدبي معين، أو إلى مجموعة نصوص أدبية يدافع عنها، أو يسوغ إنتاجها، أو ينتقدها أو يرفضها، أو يشرح ما غمض منها، أو يفسرها ..الخ، إن هذه النصوص موجودة بالفعل، لقد كتبها كتاب معينون في عصر الناقد أو في عصور سبقته بلغته أو بلغات أخرى، ولأنها موجودة فعلا فهو قد قرأها فعلا بلغتها الأم، أو مترجمة، ويستطيع كذلك أي قارئ لنقده أن يعود إليها ويقرأها بدوره إذا ما رغب في ذلك.

د- الحضور بالقوة **POTENTIAL PRESENCE**

ويكون ذلك عندما يكتب الناقد في النقد النظري أو الشعرية **POETIES** أو نظرية الأدب، ولا يكتفي بالصدور عن النصوص الأدبية الموجودة بالفعل، بل يمضي إلى ما ورائها من نصوص أدبية ممكنة، أي موجودة بالقوة يمكن لأي كان أن ينتجها

إذا ما اقتنع بمحاجة ذلك الناقد النظري بشأنها، فعلى سبيل المثال جميع الروايات ذات نهاية واحدة، ولكن لو جاء ناقد عربي ما وتحدث عن نص روائي بنهايتين أو أكثر (مستلهما في ذلك رواية الكاتب الإنجليزي جوف فاواز **JOHN FOWLES** امرأة الملازم الفرنسي، المعنونة بـ **THE FRENCH LIEUTRNANT'S WOMAN** ، ودعا إلى إدخال هذا التكنيك إلى عالم الرواية العربية وقدم ما يسوغ ذلك، وناقش النتائج المرجوة أو تحقق ذلك على يد روائي ما، فهو يشير في نصه الأدبي إلى نص أدبي عربي موجود بالقوة، يمكن أن يظهر إلى حيز الوجود ويرى النور على يد كاتب ما يقتنع بجدوى تجربة كهذه في أي وقت في المستقبل القريب أو البعيد.

والحقيقة أن كثيرا من الكتابات النقدية المعاصرة في ميدان الأدب تصدر عن نصوص أدبية ممكنة، أو موجودة بالقوة، فكما أن النظام اللغوي **LANGUE** ينبغي ألا يستغرق النصوص اللغوية الموجودة بالفعل فقط، بل يستوعب كذلك النصوص اللغوية الممكنة، أو الموجودة بالقوة، فإن النظام الأدبي، أو الشعرية أو نظرية الأدب ينبغي ألا ينظم النصوص الأدبية الموجودة بالفعل فقط، بل يتعداها إلى النصوص الموجودة بالقوة، وبالتالي يتمكن من ممارسة دور إيجابي طليعي في تطوير الإنتاج الأدبي بما يخدم قيم المجتمع المعنى به.

وجوه النقد الأدبي

النقد الأدبي إنشاء اجتماعي

بينا أن النقد الأدبي إنشاء لغوي عن إنشاء لغوي آخر هو الأدب، وأنه يستخدم الأداة نفسها التي يستخدمها موضوعه، ويشترك معه في المكونات الأساسية، ولكن هل هذا كل شيء عن النقد الأدبي، الواقع أن هنالك وجوها أخرى له نود أن نتوقف عند أهمها وهو إنه إنشاء اجتماعي

النقد الأدبي إنشاء اجتماعي من ستة وجوه أساسية:

أولها:

أن أداته اللغة الطبيعية واللغة مؤسسة اجتماعية خلقها المجتمع وهي أداة تتطور بتطوره، وتعكس هذا التطور في جوانبها المختلفة، بل إن ثمة علما خاصا من علوم اللغة يدرس علاقة هذه المؤسسة بالمجتمع هو علم اللغة الاجتماعي Sociolingustics

وإنشاء أداته اجتماعية، لا بد أن يكون اجتماعيا بوجه من الوجوه، وهو شأنه في ذلك شأن أداته، لا بد أنه متطور بتطور المجتمع الذي يمارس فيه وعاكس لهذا التطور في وجوهه كذلك.

ثانيها:

أن موضوعه اجتماعي، فلما كان الإنشاء النقدي مرتبطا بموضوعه ارتباطا عضويا، ولما كان موضوعه، الذي هو الأدب إنشاء اجتماعيا فإن النقد إنشاء اجتماعي بالضرورة، ذلك أن الأدب الذي يحكم النقد الأدبي ويحدد هويته، نوع من الإنشاء، أنه وكما يشير إلى ذلك الناقد اللساني الإنجليزي المعروف روجر فاولر Roger Fowler في كتابه ذي العنوان الموحي" الأدب إنشاء اجتماعيا [1] Literature As Social Discourse "، نشاط لغوي يتم ضمن بنية اجتماعية، مثله في ذلك مثل بقية أشكال الإنشاء الأخرى [2]، ولهذا فإننا ينبغي أن ننظر إلى النص الأدبي "كصلات وسط بين مستخدمي اللغة" وليس صلات قول، وإنما صلات

---

[1] - أنظر: Roger Fowler, Literature As Social Discourse: The Practice of Linguistic Criticism (Batsford Academic and Educational ltd. London ١٩٨٢)

[2] - المرجع السابق ص ٧.

وعي، وأيدلوجية، ودور، وطبقة وهو بهذا المعنى يغدو فعلا أو عملية، ويتوقف عن أن يصبح شيئا أو موضوعا" [1].

معنى هذا أن النقد إذ كان وثيق الصلة بالأدب، هو بمعنى ما إنشاء اجتماعي أيضا، وهو كذلك بالفعل، لأنه وكما سيتضح فيما بعد، نشاط لغوي يمارس ضمن بنى اجتماعية مختلفة، وبالتالي فإنه أكثر من مجرد علائق توصيلية، لغوية في هذه البنى، أنه وشائج وعي، أيدلوجية، ودور، وطبقة أنه بحق فعل ACT، وعملية PROCESS، وليس مجرد شيء أو موضوع.

ثالثها:

أن النقد وظيفة اجتماعية أو فائدة اجتماعية، ومهما كانت انعكاسات هذه الفائدة على صاحبها، فإنها لا يمكن أن تكون فردية أبدا، أن النقد عند ما يمارس الممارسة الحقة السليمة، يغدو القيم على الثمين والسامي والجليل من مثل المجتمع الذي يمارس فيه، لأنه يمثل البحث الدائب والمتواصل عن "هامش الأفضل والأحسن والأجدى والأكثر إنسانية" في الحياة البشرية، ولذا كان يقوم بوظيفة حيوية في المجتمع تماثل وظيفة الغربلة التي تقوم بها الطبيعة كما يحدثنا عنها ناسك الشخروب نعيمة [2].

---

[1]- المرجع السابق ص ٨٠.

[2]- يشير نعيمة إلى أن الناقد "يخدم غاية أكبر من روضي الناس وسخطهم، ويتمم وظيفة هي من أهم وظائف الحياة، فالغربلة سنة من سنن الطبيعة، والطبيعة أكبر مغربل، أولا تراها في كل حالاتها تنبذ وتحتضن؟ ألا تراها في الشتاء تكفن الأرض بالثلوج، أو تغمرها بالغيث لتحفظ من الفساد ما في رحمها من جراثيم الحياة، وإذ يأتي الربيع يتحول الثلج ماء وترسل ما زاد عن حاجتها إلى البحور، وما بقي تبعثه مع حرارة الشمس إلى لباب الحبة قوة تنشط بها من الموت إلى الحياة، وعندما تنبثق الحياة أوراقا وأزهارا تحتفظ بالأزهار إلى أن تتكون الأثمار فتبعثر الأزهار وتبقي الأوراق وتبعث بالقشور لتعود وتحضن الحبة من جديد.

رابعها:

أن الأعراف الجمالية التي يستند إليها النقد في ممارساته هي أعراف اجتماعية كما يقول تومارس:

"أنها أعراف اجتماعية من نمط معين وتترابط في صميمها مع بقية الأعراف" [1] الاجتماعية الأخرى.

فنحن نحكم على الأثر الأدبي بأعراف ومقاييس ومعايير يقرها المجتمع، ويؤمن بها، يضعها منتج الأثر في حسبانه عندما ينتج هذا الأثر ويتوقعها مستهلك هذا الأثر عندما يقرؤه.

خامسها:

إنه إنشاء موجه إلى الآخر، فليس ثمة من يزعم أنه يكتب نقدا لنفسه، صحيح أن المرء يمكن أن يرضى بممارسته هذه كثيرا، من دوافعه ورغباته وطموحاته، وقيمه الخاصة به، ولكنه من جهة أخرى لا يكتب النقد المجرد ارضاء هذه الدوافع والرغبات والطموحات والقيم فحسب، إنه يكتب ليقرأه الآخرون، ويتحولوا بالتالي إلى ما يعتقد أنه الصحيح والسليم والجميل والسامي والمفيد في الإنتاج الأدبي، ومن ثم في الحياة ولا ننسى أن الناقد – مثله في ذلك مثل الأديب– "عضو في مجتمع، ومنغمس في وضع اجتماعي معين، ويتلقى نوعا من الاعتراف الاجتماعي والمكافأة، كما أنه يخاطب جمهورا مهما كان افتراضيا" [2].

الغربلة سنة طبيعية وسنة البشر الذين هم بعض من هذه الطبيعة.

والغربلة في مصطلح نعيمة هي النقد وانظر في ذلك: ميخائيل نعيمة الغربال، الطبعة الثانية عشرة مؤسسة نوفل بيروت ١٩٨١م ص ١٣– ٢٢، وخاصة ص ٢١.

[1]– رينيه ديليك واوستين دارين نظرية الأدب ترجمة محي الدين صبحي ومراجعة د. حسام الخطيب الطبعة الثالثة بيروت ١٩٨٥م، ص ٩٧.

[2]– المرجع السابق ص ٩٧.

وهذا الجمهور يبقي ماثلا أبدا في ذهنه عند ممارسته، ويحدد إلى حد ما طريقة نقده وأسلوبه واستراتيجياته في مقاربته للأدب وغير ذلك مما يستأثر اليوم باهتمام النقد الاستقبالي.

والحقيقة أنه حتى الملاحظات المقتضبة التي يدونها بعض النقاد على هوامش الكتب والنصوص التي يقرؤها، تصل في نهاية الأمر إلى هذا الآخر إما من خلال اندماجها فيما يكتبه هؤلاء النقاد من مقالات نقدية، أو فيما يدلون به من آراء حول هذه الكتب أو النصوص أو غيرها في المحافل العامة، أو عندما تقع هذه الكتب أو النصوص في يد الآخرين، عندما تتاح مكتبات هؤلاء النقاد للآخرين نتيجة ظرف من الظروف الدنيوية.

سادسها:

إن النقد يمارس ضمن مؤسسات اجتماعية مختلفة، لكل منها بنيتها الخاصة، وحدودها وعلاقاتها، وأنظمتها، ولوائحها وإمكاناتها وأعرافها وقيمها، ووظائفها، وتطلعاتها، وأهدافها وغير ذلك مما يؤثر على نحو من الأنحاء في الممارسة النقدية فيها، ويشكل جوانب العملية النقدية إلى حد بعيد.

ولا يمكن لناقد أن يزعم أنه يمكن أن يحيد كل ما يمت إلى هذه المؤسسة بصلة من هذه الحدود، والعلاقات والأنظمة، واللوائح والأعراف والإمكانات والقيم والتطلعات والأهداف، بل إن احترامه لها يكاد يكون جواز مروره الوحيد إلى عالمها، وإلا فإن خفراء حدود هذه المؤسسات أو القائمين على حسن سير عملها، يستطيعون أن يبعدوا أي دخيل وهم مستعدون لممارسة سلطاتهم الواسعة التي أسندها المجتمع إليهم، إذا ما أخل الناقد بشيء تقره المؤسسة الاجتماعية المعنية في هذه الممارسة.

إن النقد الأدبي – كما يمكن للمرء أن يتبين – يمارس أول ما يمارس في المدرسة في فترة متأخرة من مرحلة الدراسة الثانوية، سواء أكان ذلك من خلال

دراسة النصوص الأدبية وتحليلها وتفسيرها، وشرحها، والحكم عليها، النقد التطبيقي،- أم من خلال تدريس بعض جوانب العملية النقدية لطلاب القسم الأدبي في المرحلة الثانوية، - النقد النظري، و بالطبع فإن تدريس النقد هنا يخضع لعدد كبير من الشروط منها إن القائمين على تدريسه ينبغي أن يتمتعوا بالحد الأدنى من الكفاية العلمية، ومنها أنهم ينبغي أن يلتزموا بالأهداف العامة والخاصة لتدريس هذه المادة، وأن يتقيدوا بالمناهج المحددة، وبالكتب المقررة حتى يطرق التدريس التي تحظى بقبول موجهي المادة الاختصاصيين، وهم محكومون بعد هذا وذاك بمستويات الطلاب العلمية، وما سبق أن تعلموه من معارف تتصل بهذه الفعالية من قريب أو بعيد.

والنقد بعد ذلك يدرس في الجامعة من خلال دروس النقد التطبيقي للنصوص في مواد الأدب، أو من خلال دروس النقد النظري في المواد النقدية قديمها وحديثها، ومن خلال المحاضرات المعمقة في مرحلة الدراسات العليا، أو الرسائل الجامعية التي يعدها الطلاب بإشراف أساتذتهم المختصين في المراحل المختلفة، ومن خلال المحاضرات الموسمية، أو محاضرات الأساتذة الزائرين، أو المؤتمرات المتخصصة، أو الندوات وما إليها، وبالطبع فإن كل شكل من أشكال الممارسة النقدية هذه يخضع لجملة من الشروط والنواظم التي تمليها القيم والأعراف والتقاليد الجامعية، والتي لا مجال لتفصيل القول فيها هنا.

وحسب المرء أن يشير على سبيل المثال إلى أن هذه الأشكال من الممارسة النقدية لا يشترك فيها إلا أناس من سوية علمية معينة سواء أكان ذلك على مستوى الطلاب أم على مستوى الأساتذة وإلى أن هؤلاء وأولئك في ممارستهم هذه، محكومون باللوائح والمناهج، والكتب المقررة والتسهيلات المتاحة، وغير ذلك من الشروط التي تؤثر، على نحو وآخر في العملية النقدية.

إذا ما غادر المرء المؤسسات التعليمية الشكلية، فإنه يجد أن النقد الأدبي يمارس كذلك في المؤسسات الثقافية والإعلامية المختلفة، فثمة المحاضرات والندوات، والمؤتمرات التي تنظمها المؤسسات الثقافية المختلفة، (كوزارة الثقافة، أو اتحادات الكتاب، والشبيبة والطلبة والتنظيمات الشعبية الأخرى، والنقابات المهنية ..)، وثمة البرامج الإذاعية والتلفزيونية والتي تتراوح بين مراجعات الكتب وبين البرامج المخصصة لنقد الأعمال النقدية، بأجناسها المختلفة إضافة إلى الندوات والمقابلات والتغطيات الإعلامية للفعاليات النقدية التي تقوم بها المؤسسات الأخرى.

وهناك بعد كل ما تقدم، الصحافة.

- من صحيفة يومية تخصص صفحة يومية أو عدة صفحات في يوم محدد للشؤون الثقافية تنشر فيها المراجعات والدراسات والمناقشات والتعليقات وتغطيات الفعاليات النقدية، وأشكال النقد المختلفة التي تنهض بها المؤسسات الثقافية الأخرى.
- إلى مجلة أسبوعية يمارس فيها النقد بمختلف أشكاله وعلى مستوى ينسجم مع طبيعة هذه المجلة.
- إلى مجلة شهرية عامة، أو متخصصة بشؤون الأدب والنقد.
- إلى مجلة فصلية أو سنوية تقصر نفسها على شؤون النقد دون غيرها.

إن جميع هذه الأشكال من الممارسات النقدية التي عرضنا لها بشيء من إيجاز، تخضع كما يمكن أن يلاحظ – المتأمل لطبيعتها لجملة من المؤثرات:

- بعضها يتصل بالقائمين عليها: اهتماماتهم، طبيعة تكوينهم الثقافي، ميولهم السياسية، أهواءهم الشخصية، أيديولوجيتهم، تطلعاتهم وانتماءاتهم

المختلفة، وإمكاناتهم، والتسهيلات المتاحة لهم، والإمكانات الموضوعة تحت تصرفهم.

- بعضها يتصل بطبيعة هذه المؤسسات تقاليدها وظروف نشأتها، حدودها ووظائفها، قيمها وأعرافها، وإمكاناتها وموقعها في شبكة المؤسسات العامة للمجتمع الموجودة فيه، والأهداف التي خلقت من أجل تحقيقها.
- وبعضها الآخر يتصل بطبيعة المناخ المهيمن على هذه المؤسسات جميعها، والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي تعيش فيها بشكل عام.
- وبعضها يتصل بطبيعة المساهمين فيها من داخل المؤسسات نفسها أو من خارجها، تكوينهم الثقافي، إمكاناتهم ميولهم أهواءهم التسهيلات المتاحة لهم، والشروط الحياتية العامة التي ينتجون فيها نقدهم وتطلعاتهم، وتوجهاتهم وانتماءاتهم السياسية والاجتماعية وظروفهم الاقتصادية.

وبالإضافة إلى النص الأدبي الذي هو موضوع النقد، والذي هو إنشاء اجتماعي، كما تقدم، فإن مجموع هذه المؤثرات يسهم بشكل أو بآخر في تشكيل النص النقدي الذي هو الحصيلة النهائية، أو الإنتاج الأخير للفعل النقدي، أو للممارسة النقدية.

والحقيقة أن دارس النقد، أو ممارس نقد النقد، يستطيع بل يجب إذ ما استكمل أدوات بحثه ومعطياته وتسهيلاته، أن يحدد دور هذه المؤثرات وكيفية تشكيلها للنص النقدي، وطريقة صياغتها للمحاجة التي تسود هذا النص ولإجراءاته ولافتراضاته الضمنية، وفي النهاية للذهنية أو العقلية التي أنتجته، وهو بهذا يقوم بعملية تفكيك للنص **Deconstruction** حتى يعثر على مواده المشكلة له، ويكتشف طرق بنائها في الصيغة النهائية التي بين يديه.

وهو إذ يقوم بذلك فإنه يمارس فعلا ساميا جدا، قد يبلغ في مستواه الإبداعي الفعل الأدبي نفسه، إن لم يتجاوزه إلى آفاق أرحب وأغوار أعمق.